من عالم «على مهلك»

ميمو
والطريق إلى قمة النور

مغامرة صغيرة... لقلب يتعلم الشجاعة



ليلى بن حسن جمني

قبل أول خطوة

إلى من يحمل حلما، ويؤجل الاقتراب منه لأنه خائف.

وإلى من ظن أن بطء خطوته يعني أنه لا يستحق الوصول.

هذه مغامرة عن طريق يتغير، وأصدقاء يتعلمون، وشجاعة تفسح مكانا للخوف دون أن تسلمه كل القرارات.

محطات الرحلة

نداء الوادي ٣

الجسر الأول ٩

حين تتغير الخطة ١٥

ما وراء الصدفة ٢١

الطريق البديل ٢٧

لا أحد يترك خلفنا ٣٣

قلب قمة النور ٣٩

ما بعد القمة ٤٥

قصة مصورة · الطبعة الأولى · ٢٠٢٦

الفصل ١

نداء الوادي



نافذة تطل على الجبل

كان ميمو يصلح الأشياء التي يستعجل الآخرون في رميها: عجلة لعبة، مقبض باب، وفانوسا صغيرا لا يضيء. في دكانه قرب النهر، عرف كيف يعيد النور إلى المصابيح، لكنه لم يعرف كيف يعيده إلى حلمه.

فوق القرية ارتفعت قمة النور، وعلى رأسها برج قديم كان يحلم بالعمل فيه. كل صباح يقول: «سأصعد حين أصبح مستعدا». ثم يرتب مساميره حسب الحجم، ويؤجل الصعود يوما آخر.

ذلك الصباح، دخلت القنفذة الصغيرة لوزة وهي تحمل الفانوس المكسور.

قالت: «جدتي لا ترى الدرج حين ينطفئ الضوء. هل تصلحه قبل الليل؟»

ابتسم ميمو ومد يده. عندها دوى جرس الإنذار، فسقط المفك بين قدميه.

الجرس الذي لم يكن احتفالا

لم يكن الجرس جرس السوق. ثلاث ضربات قصيرة، ثم ضربة طويلة. عرف سكان الوادي معناها: الماء يرتفع خلف السد.

في الساحة وقفت البومة سهى، مهندسة البرج، وجناحها مربوط بقطعة قماش. قالت إن صاعقة عطلت جهاز التحكم، وإن بوابة المجرى الاحتياطي يجب أن تفتح من غرفة الآلات عند القمة قبل منتصف الليل.

«إذا امتلأ الخزان، سيدخل الماء إلى البيوت المنخفضة. سنبدأ إخلاءها الآن».

سأل ميمو: «أليس هناك طريق آخر؟»

أشارت إلى ممر الخدمة المرسوم على الخريطة: «هناك طريق، لكننا لا نعرف ماذا فعلت به العاصفة».

أراد ميمو أن يسأل عن شخص آخر يصعد. كان الثعلب رائد قد وصل بالفعل، يحمل حبلا طويلا وثقة تشبه درعا لامعا.

الكلمة القديمة

قال رائد: «أعرف الجبل. أعطيني المفتاح، وسأعود قبل أن يبرد العشاء».

ضحك بعض الواقفين. وحين لمحوا ميمو وحقيبته الصغيرة، همس أحدهم: «هل سيسابق السيل سلحفاة؟»

حرك ميمو رأسه كأنه لم يسمع. لكن كلمة أقدم انفتحت في داخله: «تأخرت».

كان صغيرا حين اندفع النهر تحت الجسر الخشبي. وقف أخوه نونو في الجهة الأخرى، يناديه. تجمد ميمو يومها، واضطر أحد الجيران إلى إنقاذ نونو. قال جار غاضب: «لو تحركت أسرع!» فحمل ميمو الجملة سنوات، كأنها حكم لا يمكن استئنافه.

الآن كان نونو بين المتطوعين، يوزع الأغطية. لوح لأخيه. رفع ميمو يده، ثم أخفاها داخل صدفته.

سبب أكبر من الخوف

لحقت به لوزة عند الدكان. قالت: «سنذهب إلى المدرسة فوق التلة. لكن جدتي عند المخزن القديم، ولا أعرف إن كانت سمعت الجرس».

كتب ميمو مكانها على ورقة وسلمها لمسؤولة الإخلاء. لم تعد العاصفة صورة بعيدة؛ صارت درجا لا تراه جدة، وطفلة تحاول أن تتظاهر بالشجاعة.

نظر إلى الفانوس المكسور. فيه عطل يعرف إصلاحه. أما البرج، ففيه آلات أمضى سنوات يقرأ عنها ولا يلمسها.

عاد إلى سهى وقال بصوت منخفض: «أستطيع إصلاح التروس الصغيرة. وأعرف رسومات غرفة الآلات».

سألته: «ولماذا تريد الصعود؟»

نظر نحو البيوت. «لأن هناك أشياء لا ينبغي أن تضيع وأنا أنتظر أن أختفي من الخوف».

الحقيبة التي لم تتسع لكل شيء

لم تصفق سهى ولم تسمه بطلا. جلست معه إلى طاولة جافة، وأخرجت نسخة من الخريطة ومفتاح غرفة الآلات الاحتياطي.

حددا الهدف: بلوغ البرج، فحص البوابة، ثم فتح المجرى الآمن بعد التأكد من خلوه. قسم الطريق إلى ثلاث محطات، وكتب زمنا تقريبيا لكل منها. إذا تأخرا، سيعيدان تقييم الخطة بدل الإسراع بلا حساب.

حشر ميمو في حقيبته كتبا وأدوات كثيرة. سألته سهى: «هل تحتاج إلى كل ما يطمئنك، أم إلى ما يساعدك؟»

أخرج كتابين ومطرقة ثقيلة. أبقى ماء وطعاما وضمادا وحبلا قصيرا ومفكا، وأضاف مصباحا وورقة فارغة.

على الورقة كتب: «المحطة الأولى: الجسر». كان الهدف الكبير، أخيرا، بحجم خطوة.

باب الدكان

أصر الأرنب برق على مرافقته. كان سريعا، كثير الكلام، ويكره أن يراه أحد مترددا.

قال: «أنا الطريق السريع، وأنت ورشة التصليح المتنقلة!»

ابتسم ميمو رغم شدة معدته. اتفقا أن يراجعا وضعهما عند كل محطة، وأن يطلبا النجدة إذا أصبح الطريق غير آمن. بقيت سهى لتنظيم الإخلاء، وستصعد لاحقا مع فريق الصيانة إذا سمح جناحها والطقس.

عند العتبة، لاحظ ميمو أنه أعاد فحص قفل الدكان ثلاث مرات. لم يكن القفل ناقصا؛ كان ينتظر شعورا كاملا بالاستعداد.

قال لنفسه: «أنا خائف، ومعي ما أحتاجه لأول جزء».

أغلق الباب. وخلف آخر بيت، ابتلع الضباب الطريق.

الفصل ٢

الجسر الأول



اللوح الأول

ظهر الجسر فوق واد ضيق، يتأرجح بين ضفتين كخيط معلق. لم يكن الجسر القديم نفسه، لكن صدر ميمو لم يعرف الفرق.

وصلته رائحة الخشب المبلول، ثم صوت نونو من زمن بعيد. توقفت قدماه.

سأله برق: «أنت بخير؟»

لم يقل ميمو نعم. قال: «الجسور تخيفني. أحتاج أن نفحصه قبل أن نعبر».

وجد الاثنان حبلا مرتخيا ولوحا مكسورا عند الطرف. كان هناك مسار التفاف أطول على الخريطة. اختارا أن ينتظرا فريق القرية الذي يتفقد هذا المعبر بدل المجازفة.

وحين ظهرت القنفذة نور، قائدة الفريق، أحضروا ألواحا إضافية. جلس ميمو إلى جانبها. كانت يداه ترتجفان، لكنهما عرفتا كيف تمسكان المفك.

ما يراه الآن

بعد تثبيت الممر، طلبت نور أن يعبروا فرادى، وأن يبقى أحدهم عند كل طرف. نظر ميمو إلى اللوح الأول، ثم إلى الماء، فشعر كأن الهواء صار ضيقا.

ضغط قدميه إلى الأرض. سمى في سره ما يراه: مقبض الفانوس، عقدة الحبل، وشاح برق. لمس الحجر البارد قربه، وترك زفيره يخرج بهدوء من غير أن يجبر نفسه على شهيق كبير.

قال: «هذا جسر اليوم. أنا أكبر الآن، ومعي من يساعدني».

لم يهدأ قلبه تماما. لم يتحول النهر إلى جدول صغير. لكنه استطاع أن يسمع صوت نور من جديد.

«لا تنظر إلى الضفة كلها. انظر إلى موضع قدمك التالية».

وضع قدما على اللوح. ثم أضاف الأخرى.

صوت لا يركض

في منتصف الجسر، مر غراب مسرعا، فاهتز الحبل تحت جناحه. انكمش ميمو، واندفعت إلى رأسه صورة سقوطه في النهر.

قال برق من الطرف الآخر: «أسرع!»

اشتدت رجفته. رفعت نور يدها نحو الأرنب، فصمت. ثم نادت: «ميمو، ما الذي تحتاجه؟»

فكر قليلا. «أحتاج ألا يصيح أحد».

صار المكان أهدأ، إلا من الماء والريح. انتظر ميمو حتى استقر اللوح، ثم تحرك. لم يكن طلبه شجاعة كبيرة في أعين المتفرجين؛ كان جملة صغيرة جدا. لكنه لم يقل مثلها من قبل.

عند الضفة، اعتذر برق. أجابه ميمو: «ساعدتني حين بقيت. ساعدني أكثر حين سمعتني».

وفي دفتره، رسم أول علامة وصول.

السباق الخاطئ

صعد برق المنحدر بسرعة، ثم عاد، ثم سبق ميمو مرة أخرى. كان يلتفت إلى الساعة الصغيرة المعلقة في حقيبته، حتى تعثر بجذر خفي.

قال: «بهذا المعدل لن نصل».

أراد ميمو أن يعتذر عن قدميه. بدلا من ذلك، نشر الخريطة. كانا قد خصصا وقتا للفحص والراحة، ووضعا احتمالا لتأخير الجسر. ما زالا داخل هامشهما.

«إذا تعبت أنت من الذهاب والعودة، سنبطئ أكثر»، قال ميمو.

جلس برق على جذع. احمرت أذناه. «أخاف أن يظنوا أنني لا أفعل شيئا إذا توقفت».

نظر ميمو إليه بدهشة. كان يظن أن السريعين لا يخافون.

اقتسما قطعة خبز. للمرة الأولى، انتظرا معا دون أن يسميا الانتظار فشلا.

الأثر الذي يختفي

عند شجرة مشقوقة، عثرا على سهم طباشيري تركه رائد. يشير إلى اختصار يمر بمحاذاة الجدول.

قال برق: «سنوفر نصف ساعة».

نظر ميمو إلى الخريطة. كان ممر الجدول مقبولا في الطقس الجاف، لكن خطوط المطر على الورق بدت الآن كأنها تحذير جديد. سمع هديرا يأتي من أعلى، لا من أسفل.

«نحتاج أن نرى مستوى الماء أولا».

سبق برق إلى الحافة، يريد أن يعود بخبر سريع. انكسرت التربة تحت قدمه، وانزلق إلى المجرى الصغير الذي لم يعد صغيرا.

اختفت أذناه لحظة خلف الرذاذ. ثم ظهرت يد متمسكة بجذر.

«ميمو!»

ارتطم الاسم بالوادي. تجمدت قدما السلحفاة مرة أخرى.

هذه المرة، ينادي

رأى ميمو نونو وبرق في الصورة نفسها. للحظة لم يعرف أي نهر أمامه. أراد أن يقفز، وأن يهرب، وأن يعود إلى الصباح.

ثم سمع صوت نور؛ كان فريقها قريبا على الممر الأعلى.

صاح بأعلى ما استطاع: «نحتاج مساعدة عند الجدول!»

لم يقفز وراء الأرنب. بقي على أرض ثابتة، يصف مكانه ويطمئنه. وصلت نور بحبل الإنقاذ وفريقها، ووزعت العمل بصوت واضح.

أمسك ميمو الجزء الذي طلبت منه إمساكه. لم تكن يداه هادئتين، لكنهما لم تفلتا.

حين خرج برق، علق بحقيبة ميمو، يرتجف من البرد. لم تقل السلحفاة: «أخبرتك».

قالت: «أنت هنا. هذا ما نحتاج أن نبدأ منه».

الفصل ٣

حين تتغير الخطة



اليدان المرتجفتان

لفت نور برق بغطاء، وأعطته وقتا ليلتقط أنفاسه. بقي ميمو ينظر إلى الحبل، كأنه لا يصدق أنه جزء من هذا المشهد، لا متفرج عالق في مشهد قديم.

فحص الفريق الأرنب. لم يكن مصابا، لكنه احتاج إلى ملابس جافة وراحة قبل أن يقرر إن كان يستطيع المتابعة.

قال برق: «لقد أفسدت كل شيء».

أجابه ميمو: «خسرنا وقتا. لم نخسر كل شيء».

رفع الأرنب عينيه. كان يتوقع عتابا، لكن ميمو مد له نصف الخبز المتبقي.

في الأسفل اندفع السيل. وفي الأعلى، تحت شجرة كبيرة، بدأت العودة من حافة الخطر بغطاء ولقمة، قبل أي كلام عن الشجاعة.

الخسارة التي يمكن عدها

حين استطاع برق المشي، فحصا الحقيبتين. تبلل جزء من الخريطة، وضاعت ساعة الأرنب، وبقي المصباح يعمل.

كان في رأس ميمو صوت يصيح: «تأخرنا! لن نصل!» فكتب ما يعرفه فقط: تأخير عند الجدول، طعام يكفي، بطارية احتياطية، ورفيق متعب.

بدت الوقائع أقل وحشية من الصرخة.

أضاف: «ما لا نعرفه: حالة النفق عند المحطة الثانية».

قال برق: «وكيف ستكتب احتمال فشلنا؟»

«سأتركه احتمالا. لن أكتبه خبرا حدث».

اختارا إيقاعا أهدأ حتى مأوى الصيانة، حيث توجد ملابس جافة وخط اتصال بالقرية. سيعيدان تقدير الوقت هناك، حين تتوفر معلومات أفضل.

السطر الأخير

في المأوى وجدا ظرفا تركته سهى مع الساعي. كانت قد انتقلت إلى محطة الصيانة العليا عبر طريق المركبات مع فريق الإمداد، لتنسق العمل من هناك.

في الظرف رسم للآلة، وملاحظة عن مسمار قفل ينبغي تحريره قبل تحريك الرافعة. وفي آخر الورقة: «لا تفتحوا المجرى الاحتياطي قبل تأكيد خلو المحجر القديم».

أعاد ميمو قراءة السطر. على خريطته كان المحجر مهجورا.

تذكر جدة لوزة. سأل الحارس عبر جهاز الاتصال إن كان فريق الإخلاء قد وجدها. عاد الصوت متقطعا: «المخزن... الطريق مقطوع... نتحقق».

طوى الورقة بعناية. لم تعد القمة المكان الوحيد الذي يحتاج إلى وصوله.

قرار برق

قال برق: «ربما وصل رائد إلى البرج».

كان ميمو يفكر في الشيء نفسه، لكنه لم يملك وسيلة للاتصال به. ترك عند المأوى رسالة تحدد مسارهما، وطلب من الحارس إرسالها مع أول فريق صاعد.

تطوع الحارس لإعادة برق إلى القرية. خفض الأرنب رأسه، ثم حرك قدميه داخل الحذاء الجاف.

قال بعد صمت: «أريد أن أتابع. لكن إن لم أستطع، سأقول».

لم يطالبه ميمو بوعد بطولي. اتفقا أن يخبرا بعضهما قبل أن يتحول التعب إلى حادث آخر.

خرج برق، ثم عاد خطوة. «لن أسبقك لأثبت أنني شجاع».

«ولن أوافق على كل شيء لأثبت أنني مفيد»، أجاب ميمو.

أثر في الضباب

بدأ الضباب يمحو حواف الطريق. توقف ميمو عند كل علامة، يتأكد من اتجاه السهم قبل المتابعة.

تذمر برق، ثم لمح آثار أقدام تذهب إلى حافة مكسورة وتعود. أثر حذاء رائد. كان الثعلب قد جرب الطريق الخطأ، رغم ثقته في الساحة.

«حتى هو يعود؟» تمتم الأرنب.

أومأ ميمو وترك علامة واضحة للقادمين. لم يشعر بالانتصار على رائد. شعر بشيء أهدأ: لم يعد يطالبه، ولا يطالب نفسه، بمعرفة كل منعطف قبل رؤيته.

عند المنعطف التالي ظهرت فتحة نفق أسود. وخارجها، تحت مظلة صخرية، كانت حقيبة حمراء ممزقة.

حقيبة رائد.

وفوقها، حجر صغير انزلق فجأة من السقف.

الصفير

نادى برق، فلم يأته إلا الصدى. حاول الاقتراب، لكن ميمو أوقفه حين رأى الشقوق فوق المدخل.

وقفا خلف نتوء ثابت، وأطلقا صفير الإشارة الذي اتفق عليه فريق الصيانة. ثلاث مرات، ثم إنصات.

من خلف الصخور، جاء صفير ضعيف.

«رائد؟»

«أنا هنا... لا تدخلوا من المدخل!»

وجد ميمو بضوء المصباح علامة لممر صيانة جانبي. في دفتره، كانت المحطة الثانية سطرا نظيفا. أمامه صارت انهيارا، وثعلبا محاصرا، وسماء توشك أن تظلم.

أرسل نداء عبر جهاز أعارهما الحارس، ووصف موقعهما. لم تصل إجابة واضحة.

هذه المرة، كان عليه أن يتقدم وهو لا يملك جوابا كاملا.

الفصل ٤

ما وراء الصدفة



المأوى الصغير

قاد الممر الجانبي إلى غرفة حارس قديمة. وصل رائد إليها من الداخل، لكن بابها انحشر. أشار من نافذة ضيقة إلى مزلاج علوي.

ثبت برق المصباح، وفك ميمو غطاء المزلاج. لم يحتج الباب بعد ذلك إلى قوة كبيرة، بل إلى دفعه في الاتجاه الصحيح.

خرج رائد وشعره مليء بالغبار. شكرهما دون أن ينظر في عينيهما.

وصلت سهى مع فريق الصيانة من الممر العلوي بعدما التقطت نداءهما. أبقت الفريق لفحص الصخور، وأدخلت الثلاثة إلى مأوى آمن بعيد عن المدخل.

«الطريق الأمامي مغلق»، قالت. «لن يفتحه خوفنا من الساعة».

عند الضوء، لاحظت أن ميمو يبكي بصمت.

ما لم يقله

سألت سهى: «هل يؤلمك شيء؟»

أشار ميمو إلى صدره. «ليس شيئا يمكن تضميده».

لم تطلب منه أن يتوقف. جلست قربه حتى وجد كلماته.

حكى عن نونو والجسر، وعن الجملة التي لم يغادرها. تخيل سنوات أن كل من ينتظر مساعدته سيكتشف أنه أبطأ مما ينبغي، وأضعف مما يبدو.

«حين نادى برق، كنت هناك مرة أخرى».

قالت سهى: «كنت صغيرا. خفت وتجمدت. حدث ذلك لك، ثم بقيت تعاقب نفسك كأنك اخترته».

حرك ميمو يده عن خدش صدفته. لم يختف الألم. لكنه، لأول مرة، لم يكن وحيدا معه.

الرسالة المطوية

أخرج ميمو ورقة قديمة من حقيبته. رسالة كتبها لنونو قبل أشهر ولم يجرؤ على تسليمها.

قرأ: «أعتذر لأنني جعلتك تخاف. كنت أتمنى أن أكون أخا تستطيع الاعتماد عليه».

سألت سهى: «هل قال نونو إنه لا يعتمد عليك؟»

هز رأسه. كان أخوه يزوره، ويطلب مساعدته، ويصلح معه الدراجة. لكن ميمو كان يسمع الجار الغاضب أعلى من صوت أخيه الحي.

أضاف إلى الرسالة: «أريد أن أعرف كيف تتذكر أنت ذلك اليوم. تعبت من الإجابة بدلا منك».

طواها من جديد. كانت الورقة نفسها تقريبا، لكن السؤال فيها فتح نافذة لم تكن موجودة.

اعتذار له أثر

قال رائد: «كان والدي يقول إن المرتبة الثانية لا تستحق التعب. لذلك أسبق الجميع قبل أن يسألوني ماذا أعرف».

ظل ينظر إلى يديه. «قلت لكم إن الطريق آمن. لم أفحصه بعد المطر».

قال برق: «وكاد اختصارك يأخذني مع الماء».

لم تدافع سهى عن الثعلب. «يمكننا فهم خوفك ومحاسبة قرارك في الوقت نفسه».

اعتذر رائد، ثم سلم خريطته الدقيقة إلى ميمو. «أريد أن يراجع أحد قراراتي».

لم تصبح الصداقة جاهزة بجملة. بقي برق متحفظا، لكن الاعتذار تبعه فعل يمكن رؤيته. فأفسح له مكانا قرب المصباح، من غير أن يعده بنسيان ما حدث.

موعد بعد العاصفة

تحسنت الإشارة، فاتصل ميمو بالقرية. أخبر نونو أنه بخير، وأنه يريد الحديث معه عن الجسر حين يعود.

قال نونو: «منذ زمن وأنا أنتظر أن تسألني. لكن عد الآن فقط».

أراد ميمو قول كل شيء فورا، لكن صافرة الإخلاء وصلت عبر الجهاز. اتفقا على موعد بعد انقضاء الخطر.

قالت سهى إن الخوف الذي يعود قد يحتاج إلى وقت ودعم مختص، لا إلى ليلة واحدة في الجبل. أعطته عنوانا كان طلبه قديما ثم تجاهله.

احتفظ به هذه المرة. لم يعتبر المساعدة مشروعا يؤجل حتى ينكسر تماما.

ثم مسح الورقة من قطرات المطر وسأل: «ما الطريق البديل؟»

خريطة جديدة

نشروا الخرائط. انتهى الطريق الأول عند النفق، لكن الهدف لم ينته معه.

وجدوا ممرا يصل إلى المحجر ثم يصعد خلف البرج. أطول قليلا، لكنه يتيح تفقد المخزن القديم. ومن أعلاه يمكن إرسال إشارة إلى البوابة إذا انقطع الاتصال.

وزعوا المهام: رائد يستطلع، برق يحمل الإشارة، ميمو يراجع الآلة، وسهى تنسق مع القرية وفريق الصيانة.

قال رائد: «ومن سيكون المنقذ؟»

أشارت سهى إلى أسمائهم حول الخريطة.

أضاف ميمو إلى هدفه الأول: «الوصول معا، والتأكد من سلامة من في الطريق».

في الخارج خفت المطر لحظة. خرجوا قبل أن يستأنف حديثه، وعلى الورقة خط جديد لا يشبه الطريق الذي بدؤوه.

الفصل ٥

الطريق البديل



الباب الذي لم يفتح

لم يكن الممر البديل سهلا. أمام بوابة حجرية، اصطدمت حافة صدفة ميمو بالجدار. حاول مرة ثم ثانية، وترك الاحتكاك خطا أبيض على البرتقال.

قال: «سأحاول أقوى».

اقترب رائد من الباب، ثم تراجع احتراما للمسافة التي طلبها ميمو. «هل تسمح أن ننظر من الجانب الآخر؟»

وجد برق مفصلا صدئا يمنع الباب من الانفتاح كاملا. نظفه ميمو بقليل من الزيت، ودفعوا الباب معا. اتسعت الفتحة.

لم تكن الصدفة الخطأ الذي ينبغي التخلص منه. كان الباب يحتاج إلى عمل.

مر ميمو هذه المرة، ثم عاد ليحمل حقيبة برق. من خلفه قال الأرنب: «حسنا، يبدو أنك ورشة تصليح الأبواب أيضا».

شخص واحد لا يكفي

انقسم الممر عند بئر تهوية. أشارت خريطة رائد إلى درج، وخريطة سهى إلى سلم خدمة. اختلف الاثنان، وتعالت أصواتهما حتى غطت على الماء تحت الأرض.

رفع ميمو المصباح. كان الهواء الآتي من السلم يحمل غبارا جديدا. أما الدرج، فظهرت عليه آثار أحذية فريق التفقد.

قال: «لن نقول من يعرف أكثر. لنسأل من رأى هذا المكان بعد الصاعقة».

استطاعت سهى الوصول إلى الفريق عبر الجهاز. أكدوا صلاحية الدرج، وحذروا من السلم المتضرر.

اعتذر الاثنان عن الصياح. لم يربح أحد النقاش، وربح الجميع معلومة.

على أول درجة، نظر رائد إلى ميمو وقال: «كان ينبغي أن أسأل هذا السؤال عند الجدول».

خمس دقائق

تعثرت خطوات برق من التعب. قال إنه يستطيع المتابعة، لكن يده لم تعد تمسك المصباح بثبات.

تفقدت سهى موضعهم. كانت غرفة جانبية آمنة من الماء والحجارة، فاختاروا استراحة قصيرة محددة. شربوا وأكلوا، وتبادلوا الأحمال.

بقي ميمو ينظر إلى مدخل الغرفة. شعر أن الجلوس خيانة لكل من ينتظر في القرية. ثم رأى برق يحاول فتح كيس الطعام ولا يستطيع.

ساعده، وأجلس نفسه إلى جواره.

قال رائد بصوت خافت: «كنت أظن أنني إذا احتجت إلى راحة، فهذا يعني أنني لست المناسب للمهمة».

أجابه برق: «وأنا كنت على وشك ألا أعود من الجدول».

عندما نهضوا، عاد المصباح ثابتا في يد الأرنب.

الحقيبة الأخف

وجدوا عربة صيانة صغيرة يمكن دفعها على الجزء الممهد. حملت بعض الأدوات، فخف العبء عن الجميع.

أخرج ميمو من حقيبته قطعة معدنية حملها منذ الدكان «لعلنا نحتاجها». لم يستخدمها في أي محطة. وضعها في صندوق أدوات المأوى المعلم، ليمكن استعادتها لاحقا.

تردد قبل أن يتركها. كانت ثقيلة، لكن التخلي عنها أشعره بأن عليه الاعتراف أنه لا يستطيع الاستعداد لكل احتمال.

قالت سهى: «نملك أدوات مناسبة، وخبرة مشتركة، وطريقا للعودة. هذا استعداد له حدود، ويمكن أن يكون كافيا».

سار ميمو أخف. وعندما توقفت العربة عند نهاية السكة، عرفوا بالضبط من سيحمل كل شيء، بدل أن يحمل كل واحد خوفه في حقيبة كاملة.

العلامة التي لم تكن على الخريطة

عند المحجر، ظهرت على صخرة قطعة قماش زهرية. عرفها ميمو؛ كانت لوزة تربط مثلها إلى فانوس جدتها.

في الأسفل وقف مخزن حجري صغير. ظنوه مهجورا، حتى ارتفع من نافذته ضوء متقطع.

حاولت سهى الاتصال بفريق الإخلاء. هذه المرة وصل الرد واضحا: «الطريق السفلي انقطع. لم نصل إلى المخزن. نرسل فريقا عبر الحافة العليا».

من النافذة ظهرت يد صغيرة.

قال برق: «لوزة! ألم تذهب إلى المدرسة؟»

حملت الريح صوتها: «عدت لأساعد جدتي... ولم نجد الطريق».

نظر ميمو إلى ساعة سهى. لم يبق كثير قبل موعد البوابة. ثم نظر إلى الماء الذي بدأ يزحف نحو درج المخزن.

القمة تنتظر

قال رائد: «يمكنني بلوغ البرج إذا تحركت الآن».

ردت سهى: «اذهب إلى موضع الإشارة، واتصل بالفريق هناك. لا تفتح البوابة حتى تصلك علامة الخلو».

أومأ الثعلب، وكرر التعليمات بصوته حتى تأكدوا أنه فهم. أعطاه ميمو رسم قفل الآلة، واحتفظ بالمفتاح الاحتياطي.

انطلق رائد، واختفى خلف نتوء صخري. كان ميمو يتمنى أن يكون هو الذي يتقدم نحو القمة. تمنى ذلك بشدة، ثم شعر بالخجل من أمنيته.

لم تعاتبه سهى حين أخبرها. قالت: «تستطيع أن تريد الوصول وأن تختار الآن ما يحتاجك».

شد ميمو حزام حقيبته، ونادى عبر المحجر: «لوزة، نحن نراكم. لا تخرجا إلى الماء».

الفصل ٦

لا أحد يترك خلفنا



خلف الزجاج

كانت لوزة تضم الفانوس إلى صدرها، وجدتها جالسة على صندوق مرتفع. حول الباب، صار الماء بلون الطين، يتقدم إصبعا ثم إصبعا.

أراد ميمو أن يركض إلى الدرج. أمسكت سهى بحافة سترته وأشارت إلى مجرى مخفي تحت الماء. لم يكن الطريق الذي يراه كاملا.

اختاروا الممر العلوي الذي أكد الفريق سلامته، وأرسلوا موقعهم. كان فريق الإنقاذ قريبا، ومعه معدات وممر بديل من الخلف.

تولى ميمو إبقاء الحديث مع لوزة عبر النافذة. سألها عن جدتها، وعن مستوى الماء داخل الغرفة، وطلب منها البقاء إلى جانبها.

قالت: «خائفة».

أجاب: «أعرف. اسمعي صوتي الآن. المساعدة في طريقها إليكما».

شجاعة بحجم صوت

أخذت لوزة تسأل إن كانت ستفقد بيتها، وفانوسها، ومقعد جدتها قرب النافذة. أراد ميمو أن يعدها بكل شيء، لكنه لم يكن يعرف.

قال: «لا أعرف ماذا سيحدث للبيت. أعرف أننا نعمل لنخرجكما إلى مكان آمن».

صمتت قليلا، ثم رفعت الفانوس المكسور. «وعدتني أن تصلحه».

لمعت دمعة في عين ميمو. «ما زلت أتذكر».

من خلفها قالت الجدة: «إنها تظن أن عليها أن تكون كبيرة كي لا تتعبنا».

نظر ميمو إلى الصغيرة، إلى الشجاعة التي ترتديها فوق خوفها. «يمكنك أن تخافي يا لوزة. لست مسؤولة عن إنقاذنا وحدك».

للمرة الأولى، تركت الطفلة الفانوس على الصندوق، واحتضنت جدتها بكلتا يديها.

الخروج

وصل الفريق من الخلف وفتح باب الخدمة المرتفع. ثبتوا الممر وفحصوا حال الجدة، ثم بدأوا إخراجهما تباعا.

حمل برق الغطاء، وأضاء ميمو الدرج. حين مدت لوزة يدها إليه، كانت أصابعها باردة جدا.

توقفت الجدة عند درجة عالية. سألها الفريق عما تحتاجه، وانتظروا حتى جهزوا المساعدة المناسبة. لم يصح أحد: «أسرعي!»

كانت كل ثانية تبدو حجرا في صدر ميمو، لكنه أبقى المصباح ثابتا.

فوق الحافة، لفت سهى الطفلة بغطاء جاف. التفتت لوزة إلى المخزن، ثم إلى ميمو.

«تركت الفانوس».

قال: «سنحزن عليه معا إن ضاع. لكنك أنت هنا».

ومن مكان مرتفع، أرسل برق إشارة الخلو المتفق عليها.

لا جواب

انتظروا أن يأتي وميض رائد من جهة البرج. لم يظهر شيء.

كررت سهى الرسالة عبر الجهاز. وصل خشخشة، ثم كلمات متكسرة: «الغرفة... القفل... لا يتحرك».

أخذ ميمو الجهاز. «رائد، هل حررت مسمار الأمان الصغير؟»

«بحثت عنه. الرسم تبلل. لا أراه».

نظر ميمو إلى يديه، إلى أطراف أصابعه القصيرة التي كانت تصل إلى أضيق أجزاء المصابيح. الشيء الذي أتعبه في السباق هو نفسه الذي قد ينفعه الآن.

بقي فريق الإنقاذ مع الجدة ولوزة. رتبت سهى مسار العودة، وسمحت لميمو وبرق بالصعود عبر درج الخدمة الذي فحص قبل دقائق.

قالت: «حدثاني عند كل علامة. إن تغير الطريق، تتوقفان وتتصلان».

هذه المرة عرفا لماذا لا يحتمل الوقت اختصارا آخر.

الدرجة التالية

صعدا حتى صار الكلام صعبا. أخذ ميمو يحسب الدرجات، ثم نسي العدد. تخيل البيوت والماء والوجوه التي تنتظر خبرا.

جلس على درجة عريضة، وطلب من برق دقيقة. كان الهواء يدخل ويخرج سريعا، وكأن جسمه يركض أبعد من قدميه.

أرخى كتفيه، وشعر بسطح الحجر تحت يده. نظر إلى المصباح: ما زال هنا. إلى برق: ما زال معه. إلى اللافتة: بقي منعطف واحد.

«لا أحتاج أن أصعد الجبل كله الآن»، قال. «أحتاج أن أصل إلى تلك اللافتة».

لم يحاول برق سحبه من يده. عد معه الخطوات بصوت هادئ.

حين بلغا المنعطف، أطل البرج قريبا على نحو لم يتخيله ميمو من نافذة دكانه.

باب النور

ارتطم المطر بباب البرج الحديدي. أدخل ميمو المفتاح الاحتياطي، لكن المفتاح دار نصف دورة ثم توقف.

في الداخل كان رائد يناديهما. علق الباب بسبب انزياح إطاره، لا بسبب القفل. طلب ميمو أن يخفف رائد الضغط من الداخل. رفع برق المقبض كما وصف له، فأمكن سحب الباب.

دخلوا، وأغلقوا وراءهم الريح. فوق الدرج الدائري تردد دق ثقيل: ذراع الترس يصطدم بحاجزه مرة بعد مرة.

قال رائد: «لم أجبرها. انتظرتكما».

نظر إليه برق وأومأ. كان في إيماءته شيء من الثقة التي بدأت تعود.

صعد ميمو إلى غرفة الآلات. على الجدار تحرك مؤشر الماء نحو العلامة الحمراء، ببطء لا يرحم.

الفصل ٧

قلب قمة النور



قلب الآلة

كانت غرفة الآلات أكبر من دكان ميمو كله. تروس نحاسية، حبل سميك يصل إلى بكرة، وذراع يتحكم في ثقل بوابة المجرى عند سفح البرج.

فتح ميمو لوحة الفحص كما في الرسم. رأى المسمار الصغير عالقا تحت سن مكسور، ورأى أثر الصاعقة في جهاز التحكم القريب.

قال رائد: «جربت الرافعة، لكنها لم تستجب».

«جيد أنك توقفت».

أبلغ ميمو سهى بما يراه. راجعت معه ترتيب العمل، وأكدت وصول الجدة ولوزة إلى موضع آمن، وخلو المجرى بعد تفقد الفريق.

عند النافذة، رفع برق مصباح الإشارة نحو الفريق في الأسفل. عاد وميضهم واضحا.

لأول مرة منذ الصباح، كانت الطريق والآلة والناس في خطة واحدة.

المفك الصغير

أدخل ميمو المفك في الفتحة. انزلقت يده، فوقع المفك تحت الترس.

توقف العالم لحظة.

قال الصوت القديم: «ها أنت تفعلها مرة أخرى».

أبعد ميمو يديه عن الآلة، وأعلن ما حدث بدل أن يخفيه. ثبت رائد المصباح، وتأكدوا مع سهى أن الحركة معزولة قبل أن يستعيدوا الأداة من فتحة الصيانة.

كان برق يراقب الساعة. لم يقل شيئا.

أعاد ميمو المحاولة بعد أن جفف يده. هذه المرة طلب أن يمسك رائد الغطاء بدلا منه. بقيت أصابعه ترتعش قليلا، لكنها وجدت السن المكسور.

صدر صوت صغير جدا، يشبه نقرة باب.

تحرر المسمار. ولم تتحرك البوابة.

ما بعد النجاح الأول

شد رائد الرافعة. ارتفع الثقل قليلا ثم استقر. صاحت الريح في النافذة، وكأنها تضحك من احتفال لم يبدأ.

قال برق: «إذن لم ينفع!»

رفع ميمو المصباح. «تحرر القفل. بقي سبب آخر».

وجدوا قطعة خشب عالقة بين البكرة وحاجزها. أخرجها فريق الصيانة الذي وصل من الدرج الداخلي، ثم فحصوا الحبل والذراع قبل استئناف الحركة.

انتظر ميمو بعيدا عن الترس، وكفاه مشتاقتان إلى فعل أي شيء. لكنه عرف أن الرغبة في الإنقاذ لا تجعله خبيرا في كل جزء من الآلة.

عندما أعطى الفريق الإذن، عاد إلى موضعه المحدد.

نظر رائد إلى الجميع، لا إلى القمة خلف النافذة. «هل نحن مستعدون؟»

لم يجب أحد قبل أن يتأكد.

حين يمسك الجميع

تحركت الرافعة ببطء. شد الفريق الحبل من موضعه الآمن، وثبت رائد الذراع، وراقب ميمو علامة القفل تحت المصباح.

كان برق ينقل الإشارات بين النافذة والفريق. صوته، الذي سبق الجميع صباحا، صار ينتظر جوابا قبل كل خطوة.

ارتفع الحاجز عند سفح البرج. دوى الماء في المجرى الاحتياطي، كأن الجبل أطلق زفيرا احتبسه طويلا.

لكن مؤشر الخزان لم يتراجع فورا.

ظل ميمو يحدق فيه. «لماذا لا ينخفض؟»

أجاب صوت سهى عبر الجهاز: «ننتظر القياس التالي. راقبوا الوضع، ولا تزيدوا الفتح من عندكم».

بقي الجميع في أماكنهم. كان العمل قد نجح، لكن النتيجة احتاجت إلى زمن لا يمكن دفعه بالكتفين.

الدقيقة الأطول

تسربت قطرة من السقف إلى أنف ميمو. مسحها ببطء. تذكر درج لوزة، ودكانه، ووجه نونو عند الساحة.

ماذا لو فعلوا كل هذا ولم يكف؟

قال لبرق بصوت لا يكاد يسمع: «أحتاج أن تبقى بقربي».

جلس الأرنب إلى جانبه، دون وعد بأن كل شيء سيكون بخير. بقي فقط.

من الأسفل وصل نداء: «الماء دخل المحجر. الحواف خالية. المسار يعمل».

ثم تحرك المؤشر مسافة صغيرة بعيدا عن الأحمر.

قال ميمو: «رأيته».

لم يصرخ. خاف أن يوقظ الحركة من حلمها. بعد قليل تحرك المؤشر مرة أخرى.

عندها غطى ميمو وجهه بيديه، وانفجر بالبكاء الذي أجله منذ أول جرس.

الضوء عبر الوادي

استقر مستوى الخزان، وأعلن الفريق أن خطر الفيضان الأكبر يتراجع. بقيت مراقبة الليل والإخلاء الاحترازي، لكن البيوت لم تعد تنتظر الموجة نفسها.

أعاد الفريق تشغيل مصباح البرج من مصدره الاحتياطي. وجه برق الإشارة الذهبية نحو القرية: المجرى مفتوح، والفريق بخير.

من بعيد أجابت أضواء صغيرة من ساحة المدرسة. واحد، ثم آخر، ثم خط كامل من النوافذ.

سأل رائد ميمو: «هل كنت تعرف أنك ستصل؟»

هز رأسه. «عرفت فقط لماذا أريد المحاولة. والباقي تعلمناه في الطريق».

أخرج دفتره. عند خانة القمة رسم علامة وصول، ثم أضاف أسماءهم جميعا.

لم تتسع السطر الأول، فكتب سطرا ثانيا. كان ذلك أجمل عيب في الخطة.

الفصل ٨

ما بعد القمة



العودة مختلفة

لم ينزلوا في الظلام ليصلوا أولا. أمضوا ما بقي من الليل في مأوى البرج مع فريق الصيانة، حتى فحص الطريق وأضاء الصباح.

حين عادوا إلى القرية، كان التعب يجعل برق يصمت لأول مرة. حمل رائد حقيبة سهى، وحمل ميمو دفتره في جيب قريب من القلب.

عند المدرسة ركضت لوزة إليهم، ثم توقفت قبل أن تصطدم بالسلحفاة.

«هل انتهت القصة؟» سألت.

نظر ميمو إلى نافذة مكسورة، وإلى أوعية الماء، وإلى الجيران الذين ينظفون الطين معا.

«انتهى جزء صعب. بقي أن نساعد بعضنا في الجزء التالي».

فتشت الطفلة في جيب الغطاء، وأخرجت مقبض فانوسها. «إذن احتفظت لك ببداية».

حديث عند النهر

بعد يومين، جلس ميمو ونونو قرب النهر، في مكان مرتفع وآمن. أعطاه الرسالة، وانتظر حتى انتهى من قراءتها.

قال نونو: «كنت خائفا يوم الجسر. لكنني لم أفكر أنك لا تحبني، أو أنك اخترت أن تتركني».

سأل ميمو: «ولماذا لم تقل؟»

«كنت تغير الموضوع كلما حاولت. ظننت أنك لا تريد أن تتذكر».

ظل الاثنان ينظران إلى الماء. لم تعد السنوات إلى الخلف، ولم تتحول الذكرى فجأة إلى ذكرى سعيدة. لكن ميمو سمع أخاه بدل الصوت الذي ظل يتحدث باسمه.

قال: «ما زلت أغضب من ذلك الجار».

أومأ نونو. «يمكن أن تغضب. لا يلزم أن تصدقه».

الصباح الذي عاد فيه الخوف

في الأسبوع التالي، توقف ميمو عند جسر القرية الجديد. كان جسرا ثابتا فحص جيدا، ومع ذلك بدأت يداه تتعرقان.

شعر بخيبة. بعد القمة، توقع أن يصبح شخصا لا يخاف الجسور.

لم يختبئ في الدكان. اتصل بالشخص المختص الذي اقترحته سهى، وحدد موعدا. وفي ذلك اليوم اختار طريقا آخر، ثم عاد لاحقا مع من يثق به ليتدرج في التعامل مع خوفه على نحو مناسب.

لم يضع علامة فشل في دفتره.

كتب: «عرفت ما يحدث لي، وطلبت دعما، ولم أهن نفسي».

في المساء مر نونو بالدكان. وجده يصلح فانوس لوزة، ببطء عادي، ودون أن يعتذر عن الوقت الذي يحتاجه.

حلم له موعد

بعد شهر، وصل طلب من محطة البرج: هل يرغب ميمو في التدريب مع فريق الصيانة يوما كل أسبوع؟

كاد يقول: «حين أصبح مستعدا».

ثم فتح دفتره. كتب ما يحتاج إلى تعلمه، وما يعرفه بالفعل، والوقت المتاح بين أعمال الدكان. سأل عن متطلبات التدريب، واتفق على موعد أول، وعلى مراجعة تقدمه بعد عدة أسابيع.

لم يعد نفسه بأنه سيكون أفضل مصلح في الجبل. وعدها بأن يحضر، ويسأل، ويتدرب، ويراجع ما لم يفهمه.

صنع برق لوحة للدكان كتب عليها: «مغلق صباح الخميس. ميمو يتعلم».

تأملها طويلا. للمرة الأولى، لم يشعر أن التعلم اعتراف بالنقص. شعر أنه سمح للحلم بأن يدخل جدول الأسبوع.

فانوس جديد

جمع ميمو مقبض الفانوس القديم، وقطعا صالحة من مصباح آخر، وصنع للوزة فانوسا جديدا. لم يشبه الأول تماما. كان له زجاج أوسع ومقبض أسهل ليد الجدة.

حملته الطفلة إلى مائدة الإفطار قرب الجسر، حيث اجتمع الجيران بعد انتهاء أعمال الإصلاح.

قال رائد إنه سيلتحق بفريق تفقد المسارات، وإنه سيأخذ تدريب السلامة قبل قيادة أحد. قالها دون نكتة عن المرتبة الأولى.

أما برق، فوضع ساعته الجديدة داخل الحقيبة، وأبقى الغطاء في جيب قريب.

رأى ميمو كيف تغيرت أشياء صغيرة في أيديهم. لم يصبح أحد كاملا. لكنهم صاروا أقدر على الاعتذار، والسؤال، وحمل بعضهم حين يثقل الطريق.

ما الذي وصل؟

سألت لوزة: «هل النجاح أن تصعد إلى القمة؟»

نظر ميمو نحو البرج، ثم إلى الدكان المفتوح، وإلى الرسالة التي لم تعد مخبأة، وإلى كرسيين أضافهما قرب طاولته ليستقبل من يطلب التعلم.

قال: «كنت أظن ذلك. الآن أريد أن أعرف أيضا من أصبحنا، ومن وصل معنا، وماذا سنفعل بما تعلمناه».

أغلقت الجدة الفانوس؛ كان ضوء النهار كافيا. فوق النهر عبرت غيمة صغيرة، فارتعشت يد ميمو لحظة، ثم عادت إلى فنجانه.

فتح دفتره على صفحة جديدة. لم يكتب حلما هائلا هذه المرة. كتب موعد الخميس، وأول سؤال سيسأله.

ثم ابتسم للوزة وقال:

«على مهلك... وخطوتك التالية معك».